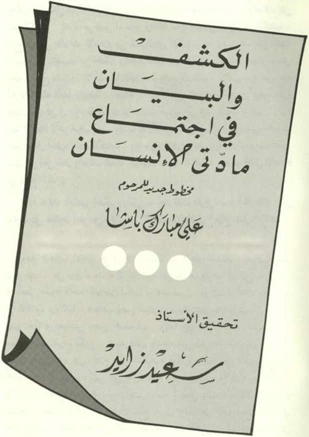

الكشف والبيان في اجتماع مادتي الإنسان

مخطوط جديد للمرحوم

علي مبارك باشا

تحقيق الأستاذ

سعيد زايد

مقدمة

قرأت في تاريخ حياة «علي مبارك» الذي كتبه المرحوم الدكتور محمد دري الحكيم ، أن لعلي مبارك كتابًا اسمه «آثار الإسلام في المدنية والعمران» ، وقد قال عن هذا الكتاب : إنه «آخر عمل له مبرور وخاتمة سعيه المشكور ، فإنه نعم الكتاب ، شرح فيه كل ماأدخله الإسلام من العمران في الممالك ، وما ترتب عليه من المدنية والنظام ، وماتضمنه من الحكم والعلوم البالية ؛ بعبارات تكفل بيان المطلوب على وجه صحيح مقبول . إلا أن هذا الكتاب لم يطبع إلى الآن ، والذي نعرفه من أمره أنه لما أكمله تأليفًا وتبييضا ، أعطاه لأحد أفاضل العلماء الأزهريين ليعيد نظره عليه ، ويُدقِّق في مراجعة أصول الأحاديث النبوية التي فيه . فكان كذلك ، وقرأه هذا الأستاذ لآخر حرف فيه ، وكتب بما رآه من بعض ضبط الروايات في الحديث عدة أوراق ألحقها بذلك الكتاب ، وها هو ذا باق فيما نعلم بخزانة مؤلفه رحمه الله ، ينتظر من أهل العلم والعرفان التفاته إلى طبعه لتعم به الفائدة ، ويعرف فضل الإسلام في تقدم البلدان» .

هذا ما قاله الدكتور الحكيم . ولكني — بعد بحث طويل — لم أعثر عليه ، بل عثرت على مخطوط آخر لعلي مبارك هو «الكشف والبيان في اجتماع مادتي الإنسان» .

وهذا الكتاب الأخير يقع في ٦٢ صفحة من القطع المتوسط ، مكتوبة بخط نسخ جيد ، على ورق توجد به ثقوب كثيرة على حوافه . ونُرجح أن علي مبارك كان قد أعطى أصوله لأحد الخطاطين ليكتبها له بخط حسن ، أو كان قد أملاه عليه ، ثم قرأ الكتاب مرة ثانية ، فحذف بعض العبارات ، واستبدل بها عبارات أخرى ، مما يظهر جليًا في هوامش بعض الصفحات . ويبدأ علي مبارك كتابه بالبسملة ، ثم ببعض آيات القرآن الكريم ، ثم يتلو ذلك بالدعاء للنبي صلى الله عليه وسلم . ويذكر أنه قد لخص كتابه عن «كلام بعض الأعيان» ثم لا يزيد شيئًا على ذلك مما يبين لنا أسماء هؤلاء الأعيان . ويُنهي علي مبارك كتابه بكلمة (تم) ، ولايذيله بغير ذلك ، ولا بأية عبارة تدل على تاريخ التأليف . ولعله لم يفعل ذلك لأنه كان لايريد أن يحتفظ به مخطوطًا ، بل كان يريد أن يدفع به إلى المطبعة على الفور ليحتل مكانه في عالم المؤلفات . وهذا يدعونا إلى القول بأنه وضع هذا الكتاب في آخر أيام حياته مثل كتاب «آثار الإسلام في المدَنية والعمران» .

وهذا هو الكتاب محققًا ، ولقد أضفت إليه بعض الكلمات كي يستقيم النص ، كما هو واضح في الهوامش . أما ما استدعاه الأمر إلى تصحيح بعض الأخطاء الإملائية والنحوية ، فلم أشر إليه ، لأني على ثقة تامة أن علي مبارك لو قدر له أن يعيش حتى يطبع كتابه لما ظهر وجودٌ لهذه الأخطاء .

بسم الله الرحمن الرحيم

« اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » .

ناديتك اللهم بلسان ساكن طلق ، وقلب ثابت قلق ، أن تفيض سوابغ النعم على روح سيدنا محمد ينبوع الحِكم وآله وأصحابه ، منتخب العالم ولبابه .

أما بعد ، فيقول خادم الحق تبارك ، فقير ربه علي مبارك : لما وقفت على كلام بعض الأعيان في قوام نوع الإنسان ، ووجدته في غاية من الإتقان ، **لابتنائه على** واضح البرهان ، فاشتاقت نفسي لتخليصه على قدر الإمكان ، وعنونته بالكشف والبيان في اجتماع مادتي الإنسان ، وأقول : وبالله التوفيق ، وهو نعم الرفيق ،

زعم بعض الحكماء ، أن الشرف والكمال إنما هو للروح ، والجسم حبس لها ، وقيد مانع عن ارتقائها إلى درجات كمالها ، وسبب في بقائها في عالم الطبيعة . وزعم آخرون أن لا كمال ولا فضل سوى تحسين الجسم وإعطائه لوازمه . والعلم والفضيلة وسيلة إلى هذا ، وليسا غرضًا مقصودًا كما يقول الأولون . ولكل من المذهبين ناقض ومعارض ، كما له ناصر ومعين . وقد عوّل حكماء هذا العصر على الأول قائلين : لايعتبر قدر الرجل إلا بالفضل والكمال ، لا بالظرف والجمال مع النقص والخبال . والحق أن الميل إلى إحدى الجهتين بالمرة خطأ ، بل الواجب أن نسلك سبيلاً بين السبيلين ، ولا نجعل كل الفضيلة للجهة العقلية دون الجهة الجسمية ، ولا العكس ، بل نجتهد في إعطاء كلٍّ حقها ببيان ما تحتاج إليه الروح من الجسم في أعمالها ، وما يخص المجموع الإحساسي الحيواني من تلك الأعمال . وقبل أن نبحث عن الغايات الكمالية المكتسبة بمساعدة الجسم ، يلزمنا أن نقرر ضرورة لزومه ، وأن نتفق على بعض الأمور الأساسية لهذا المبحث ، ولذا لزمنا البدء بالكلام على اجتماع مادتي الإنسان.

في الإنتاج الطبيعي للمادتين في أعمال الروح والقوى الغذائية والتناسلية

جميع التدابير البشرية لا يقصد منها غير كمال الإنسان . فالمادية والمعنوية منها مُوصلة لذلك ، ويمكن التعبير عنها بقضية كلية بأن يقال : إن كمال الإنسان يكون في استعمال قواه في هذا العالم . وحيث أنه لا بد من المناسبة بين أفعال القوى ومنفعلاتها ، كان غاية الكمال في استعمال غاية الممكن من القوى ، مع بقاء انقيادها لبعضها . ثم لأسباب سنبينها ، نشاهد ارتباط همم النفس البشرية بالهمم المادية ، وقبل أن يتنبه في النفس من الإنسان إدراك ما ، يتهيأ الشيء المدرَك بواسطة قوى مخصوصة هي الحواس ، ويصل إلى النفس ، وما وصل إليها : تهيئه قوى أخرى مخصوصة تتوسط بين النفس والعالم الظاهر فيظهر . وتقابل القوى السابقة المذكورة إحساسات في مركز الإحساس العام . وجميع هذه القوى والإحساسات هي أعمال الروح .

ولما كان البدن هو مقر الحركة التي هي منشأ للتقلبات والتغيرات على الدوام ، لـذا يحصل في ذلك البدن التحلل والتفرق . فلو لم يكن له مايعوض بدل المتحلل والمتفرق لزم انمحاقه وذهابه في يسير من الزمن . بخلاف الروح ، فليس يلزمها ذلك ، كما هو معلوم . فلابد حينئذ من أن يكون في البدن قوى بها يعوض له مازال عنه لما أنه عرضة للتلف . فبتلك القوى يحفظ دوامه ، ويبقى قوامه . فجعل الله سبحانه وتعالى في البدن تلك القوى لأجل ذلك التعويض المذكور، من أجل حفظ البدن . وتلك القوى هي ماتعرف بالقوى الغذائية .

ولما كان قد يعرض لتلك القوى بكثرة الأعمال ضعف ، حتى لاتقوى على تعويض مثل ماذهب ، فلا يزال البدن في التفرق شيئًا فشيئًا حتى يبلغ غاية الضعف فيموت الإنسان . فلو ترك أمر الإنسان وتلك القوى ، لزم ذهاب النوع من أصله ، وانمحاقه من الأرض . فاقتضت حكمة الصانع لأجل بقاء النوع ، أن يجعل في البدن قوة بها يكون الشخص سببًا في وجود غيره من جنسه ، كيلا يذهب هذا النوع من أصله وتخلو الأرض من ساكنيها ، وهذه القوة هي المسماة بالقوة التناسلية . وبهذه القوة ، مع القوى السابقة ، تم نظام هذا النوع من حيث ذاته ومن حيث أشخاصه وجزئياته .

في الجسم الآدمي

تنقسم قوى الجسم الإنساني إلى قسمين : الأول ما لا نصل إلى معرفة حقيقته كإحساس الأعصاب وتهيّج العضلات ، وبعضهم عبر بأن الإحساس حاصل من سيّال موجود في تجاويف الأعصاب يفوق الأثير والكهربة في اللطف والسرعة ، وبأن التهيج من مادة تسمى بالإفرنجية نيزوس من شأنها تنقبض وتقرب أطراف الألياف العضلية عند وقوع تأثير غريب عليها . وهذان الأمران : أعني الإحساس والهيجان هما مايتميز بهما التركيب الحيواني فيهما . خاصية الثاني هي القوى المعروفة المعبر عنها بأسماء مخصوصة، ويدخل فيها جميع قوى الحركة، وتدابير البدن التي تنشأ عنها الحياة النباتية، فإذا تبين لك هذا، فالحياة النباتية بانضمامها مع الحركة، وامتزاجها الامتزاج التام تحصل الحياة الطبيعية الحيوانية لجسم الآدمي.

الحياة
الحيوانية

لما كان مقر البدن عالم الطبيعة الذي هو مقر المضادات والمنازعات ، كان هذا البدن عرضة لما يطرأ عليه في هذا العالم ، فوجب أن يكون للروح ادراك ذلك حتى تدفعه عنه . وإذا كان من لوازمه جلب ما يقوّم قوامه ، وجب أن يكون لها ادراك ما ينفعه حتى تجلبه إليه . فهي حينئذ يجب أن تكون عالمة بلذاته وآلامه ، فتنعم بلذاته وتتألم بآلامه . ومن هنا ظهر اشتراك الروح في منافع الجسم ، واستدل على أن الحياة الحيوانية أعلى مرتبة من الحياة النباتية . ولاتظن أن هذا الحكم في الجنس الحيواني على قانون واحد وسيلة ومقصداً ، بل ذلك في الحيوان تلذذاتِه وتنعمَاته بقدر ما يتعيش به ويحفظ بدنه ، فيأكل اليوم كما أكل أمس ، ويشرب كما شرب ، هذا غاية منتهى سيره في أعماله وأطواره . بخلافه في الإنسان ، فإن هذا له ، لكن لأعلىَ أنه مقصدٌ ينتهي إليه سيره ، بل ليكون وسلية له إلى معالي الأمور وكسب الفضائل والمكارم ، وحينئذ فلا يقصد الحيوان من الحياة غيرها ، بخلاف الإنسان ، فإن حياته واسطة توصل لكماله . في الحيوان ، الواسطة والغرض واحد ، وفي الإنسان ، الواسطة والغرض شيئان متباينان . وهذا مايميز الإنسان عن الحيوان .

ثم لأجل إتمام أعمال الروح ينبغي كمال الصحة والسلامة في الحياة الحيوانية ، إذ كل مايضر بها يضر بتلك الأعمال . ومن هنا يلزم أن تكون الروح تحت حكم قوة تحكمها حتى تستديم في أعمالها ، ولايصح أن تقول : إن تلك القوة هي القوة الفكرية ، بمعنى أن الشعور بالملائم والمنافر تحت تصرف الفكرة والنظر ، لأن العقل في كثير من الأحوال تستولي عليه الغفلة والغباوة عند الانهماك في جلب اللذائذ ، ودفع المنافر ، ويلحقه الخمول أيضاً لقلة العمل ، ونحوذلك . فلو كانت تلك القوة تحت تصرفه ، لم يكن منه ماذكر . وحينئذ فلا مدخل له في ذلك ، بل لابد من قوة اخرى تحكمه ، وهذه القوة هي الإحساس الحيواني . وحيئذ ينبغي أن نشرح ذلك الإحساس ونبيِّن سببه .

الإحساسات الحيوانية

الإحساس الحيواني ، هو شعور الجسم بما يطرأ عليه من الملذات والمؤلمات ، وسببه التركيب للأعضاء ، والخاصية الملازمة للتركيب المذكور ، ومنه تتنبه الإرادة بالقوة والسرعة نحو الرغبة أو الرهبة ، وتحيط بالنفس كإحاطة الظرف بمظروفه فيحصل شعورها بإحساسات معنوية متفرعة عنها (ما)(١) حصل للأجزاء الحيوانية المعرضة للتلف أو البقاء . بمعنى أن الباري سبحانه وتعالى جعل في مقابلة الحالة الحافظة لسلامة الجسم وصحته إحساسًا نفسيًا تتلذذ منه الروح ، وجعل في مقابلة الحالة الموجبة لتلفه وفنائه إحساسًا مكروهًا تتألم منه . وحينئذ فالإحساسات الحيوانية تتولد من أمرين : **الأول من التركيب الحالي للجسم والثاني من خاصية الإحساس** .

ويفهم مما سبق تغلب الإحساسات الحيوانية على الروح ، ووقوعها في الشهوات بقوة قهرية ، وأنها في أكثر الأحوال فائقة الإحساسات النفسية . لأن الإحساسات النفسية المذكورة أحدثتها الروح بالفكر ، فيمكنها إزالتها أو نقصها به أيضًا . بخلاف الإحساسات الحيوانية ، فإنه محكوم بها على الروح بالقانون الطبيعي الجِبِلّي ، فلا يقوى الفكر على إزالتها ، لأنه لم يكن المحدث لها . وإن كان في إمكانه تنقيص سَوْرتها ، بتوجيهها في الجهة المخالفة .

فالمرتاض الذي جعل نفسه عرضَةً لنوع من العذاب، لا يصح له أن ينكر الألم ، ولكن بصرفه الفكر في مقصده الذي هو عنده بحسب نظرة أعلى من دفع هذا لألم ، بل من جلب اللذائذ الحسية ، تنكسر سورة هذا الألم عنده ، بل يصير من جملة حظوظه المرغوبة ، فتستولى حينئذ اللذة الروحانية على الجسمانية . فسّوس الروماني الموضوعة يده على الجمر الملتهب ، متألم بلا شك ، لكنه ليس الألم عنده بدرجة تبلغ بها أن يظهر الفزع والضجر ، بل ينظر إلى عدوه بعين الحقارة ، لأن فكره لرومة وطنه ، وما يحصل له فيه من التعظيم والاحترام ، قد ملأ روحه ، وتسلط على حواسه ، فكأن الألم الجسماني لا يجد قوة تفسر هذه الفكرة . فالألم حاصل له كغيره ، ولكن غاية الفرق بينه وبين دنيء الهمة ضعيف الفكرة ، المبالاة بذلك وعدم المبالاة .

وليس العقل وعلو الهمة وقوة البأس بمبطل لتلك الأحكام رأسًا ، بل الأمر كما علمت .

وليكن في علمك أن تسلط هذه الإحساسات المادية على القوة العاقلة من لطف الحكيم البارئ تعالى ، إذ لو لم يكن كذلك فلربما نظر العقل إلى قدسية ذاته وجمال صفاته ، فاشتغل بملاذه الروحانية عن أداء حق البدن وقضاء لوازم بقائه ، فاقتضت حكمة الحكيم أن يجعل لتلك القوى نوعًا من التسلط على القوة العاقلة ، حتى أن العالم الحكيم المشتغل بمعالي الأفكار ، الآخذ في استمداد الأنوار بأدنى ألم من شوكة فما فوقها ، رجع من عالم أفكاره إلى حضيض تذكاره ، وأخذ يدافع ما اعتراه ، وطفق يبث شكواه ، كي يعلم بهذا الرجع العنيف أنه واسطة بين الحيوان والملَك . فإذا اشتد توغل النفس في عالم الإحساسات الحيوانية ، ولم تلتفت إلى عالم المجردات الروحانية ، ضعفت قوتها العاقلة على حسب ذلك التوغل . ولاتزال كذلك حتى تكون تحت حكم الإحساس المحض ، فلا تميز الحسن من القبيح ولا الفاسد من الصحيح ، بل كل ما ألفه الحس ألفته ، وكل ما نفر عنه الحس تركته ، وبذلك تقتحم المحرم وتوافيه ، وتنكص عن الحلال وتعاديه .

ولا يخفى عليك أن جميع تلك الأفاعيل تابعة لسلامة الآلات واعتدال المزاج ، إذ على قدر الخلل يكون الكلل . فقد بان لك من جميع ما قدمناه أنه لابد من ارتباط المادة بالروح ، وإلا لم يكن بقاء البدن ، لعدم المتصرف فيه ، ولم يكن للروح أن تحصل كمالاتها ، لعدم آلاتها . فالبدن يحتاج إلى الروح في إفاضة التدبير ، والروح تحتاج إليه في استكمال أحوالها بالحركات والإحساسات ، وبها أيضًا يكون تدبير الروح للبدن . فهي حينئذ أس جميع آلات الروح التي عليها مدار تصرفها وتسهيل مقاصدها . فقد ظهر كيفية الارتباط بين الروح والبدن ، فافهم .

ما اعترض به على هذا الاتحاد

بفرض عدم المعارضة فيما تقدم ، وأن لهذا الحد ينتهي أمر اتحاد الجسم بالروح . يقال: إنه يكون لها بعد ذلك صاحبٌ خمولٌ، ورفيقٌ مضطرة على مزاحمته وممانعته، تعطل ضرورياته اشتغالها بالجو، لأنه في الأمور العالية مُقعِد لها عن الارتقاء

في درجات مكارمها ، مُميل لها عن التصورات العالية والتصديقات السامية ، ومُلحق لها بعالم الأجسام ، وموقع لها في الارتباطات الطبيعية الخسيسة ، فتقع في الحيرة ، وتحجب مبدأها ، وتنزل عن حقيقتها ، وتقرب من الحيوان ، وتكون في ربقة أسر الماديات ما بقيت . فأي داع إلى هذا الاتحاد الموجب لهذه النقائص . وأيضًا كيف يمكن اتحاد الروح المجردة البسيطة القائمة بنفسها الغنية عن المادة ، مع الدين الواقع تحت حكم المادة التي هي منشأ للتركيب والتكثر المعرض للتغيرات على حسب حكم الضرورات !؟

ولكن لا يخفى على المتأمل أن في هذا الاتحاد من بدائع الحكم ولطائف التدابير . ماتطمئن به النفوس ويدفع النكير .

في الاتحاد المعنوي

الميل الحيواني يقوي الميل الروحاني ويمده . وبيانه أننا لو فرضنا تجرد الروح عن البدن . مع فرض بقاء قوة الإدراك للأمور الطبيعية في هذه الحالة كيف تتمكن من الدخول في الأعمال التي يقتضيها ذلك الإدراك ، وكيف تتمكن من توسيع المجال والترّقي في درجات الكمال . ويحتاج في إيضاح هذه المسائل إلى أن ننظر أولاً في تربية شخص بخصوصه . ثم فيما يلزم النوع بتمامه ، وليس لنا في هذا المطلب إلا قوة الإدراك والإرادة ، وقوة الفعل والاتصال بين الروح والعالم ، وبالعكس . فالمسألة الأولى كيف يكون الدخول في الأعمال ؟

الروح منفصلة عن الجسم

لا يمكن فرض أي تصور إلا بعد سبق إرادة عليه ، وكل إرادة تستلزم سبق تجربة تحقق ثبوت ثمرة سابقة . يعني أن كل إرادة تستلزم الإحساس بثمرة مَا ، وبفرضنا إبعاد الجسم . امتنع الإحساس الجسماني ، ولم يبق إلا الإحساس الروحاني الذي هو التصور . وعلى ذلك كل تصور محتاج إلى سبق تصور عليه ، وهكذا . فلم يبق إلا تصورات صِرْفة ، لا يصحبها فعل .

ولنعتبر الطفل مع بقاء الفرض السابق ، يعني : روحاني متمتع بمزية التصور ، ولكنه

يروم استعمال هذه المزية أول دفعة فنقول : ما الذي جعله يميل إلى التفكر ، غير شعوره باللذة التي تحدث له ؟ ومن أين له علم تجربة الشعور باللذة ؟ وقد قدّمنا أن ذلك لا يكون إلا بالتفكير ، وهو لم يتفكر إلا في هذه الدفعة . وأيضًا فما الذي يحمله على الميل إلى الاشتغال بهذه الدنيا غير التجربة ونظره لما تحدث له من اللذة وكفاية التطلبات ؟ وكذلك ما الذي يحثه على عمله بقواه إلا علمه بها فيه ؟ وجميع ذلك لم يحصل عنده إلا في هذه الدفعة ، وحينئذ ينبغي أن يكون عالمًا من الأزل ، وهذا ضد الفرض ، أو أنه لا يعمل شيئًا ، ويكون هو والجسم في عدم الحركة والعمل ، ما لم يكن بقوة تضطره للفعل .

الروح مرتبطة بالجسم

فلو ألحقنا الجسم بالروح وجعلناهما ممتزجين امتزاجًا تامًا كما هي حالتهما الحقيقية ، وأن هناك أمرًا لايفهم بخصوصه الآن وهو ناشئ من التركيب البدني عامر لأعضاء الإحساس ، فإن فرضنا في هذه الحالة أن الروح في حالة الألم المادي ، ففي الحال يحدث أول منبه إلى جميع القوى البدنية ويحصل الإحساس الذي لم يكن في الحالة السابقة . وبالإحساس المذكور تزول جميع الصعوبات التي مضت ، لأنه عند فرض تجرد الروح لم يكن هناك إلا مجرد تصورات ، وفي الحالة الراهنة ما حصل من التغيرات والتكيف في الأعضاء عوض التصورات المذكورة ، والذي حرك جميع آلات أعمال الروح هو الإحساس الحيواني . وحيث أن المرور من الألم إلى الكراهة قانون أصلي للروح ، وأن الإرادة فعالة دائمًا ، ففِعل قوة واحدة كفى لتحريك جميع القوى الأخرى .

* * *

ما علم من تاريخ شخص بعينه في اتحاد الروح بالجسد

ولنقتف الآن في الشخص الواحد السيَر الروحاني في تقدماته ، وننظر كيف تظهر جميع إحساساته الباطنية من إحساس حيوان واحد .

سن الطفولة

في هذا السن لايكون الطفل إلا في درجة الحيوانية إلا أنه يترقى في درجة الحيوانية شيئًا فشيئًا. فليس درجته ورتبته محض الحيوانية الصرفة ، بل الحيوانية مع قبول الترقي ، لأنه حيوان بشري ، وسيكون بدرجة له فيها الفكر بالفعل . وهو في هذه السن أقل حظًا من الحيوان . لأنه مجرد عن الغريزة ، وأنثى الحيوان يستغنى عنها نتاجها في أقل من زمن استغناء ولد الإنسان عن أمه . والطفل وإن تأثر بالألم في هذه السن ، فلا يهتدي إلى السبب الذي حدث منه ، وهو وإن تلذذ بلبن الأم ، فلا يدرك بأي طريق كان التلذذ ، فهو مجرد عن الأفكار بالكلية ، ففكرته ليست بأعلى من الإحساس ، وعلمه منحصر في التألم بالجوع والتلذذ بالشبع ، وجميع قواه الموكول إليها حفظه في حبس الرق ولم تشتغل بالتصرف .

حبة الثانية من الطفولية

في هذه السن يأخذ في الفكر وملاحظة الأسباب ، لكنه لا يشتغل إلا بلوازم الحياة الحيوانية ، فيبتدئ الطفل في معرفة أحوال بني جنسه ، وعلى حسب ما يحصل عنده من جهتهم من اللذات تكون معاملته لهم . فحبه للاشتغال والأهل والأحباب ، لايتمكن من قلبه إلا بواسطة الآثار المحسوسة ، فالإحساس مصباح تستضيء به جكيه تلقوى فتبعث أشعتها علي النفس فيدرك منها مايُدرك . فالطفل في هذه السن يستعمل العقلَ وطرقَه الروحانية ، لبلوغ أغراض مادية ، فليس للعقل عنده فضل إلا كونه واسطة للحصول على الأغراض المادية . ومن اجتماع هذه الافكار وتواردها وتماديها مرة بعد أخرى ، تصير بعد كونها حالا من الأحوال ، ملكة وعادة . ومن استعمالها في تأدية أغراضه ، ينتهي به الأمر إلى درجة كمال الفكر بمجرد عروض أمر له يأخذ في التفكر في أحواله وما ترتب عليه . فحينئذ يصل نور أشعة كماله الروحاني إلى قلبه، فيملأه نورا وتتسع دائرة بصيرته .

ومن إدراكه أفعال قواه وآثارها يزداد نوره ويستديم سرورة، فيقوى عنده حب المعرفة، ويحل منه عمل الغرض الأول، ويميل إليها كل الميل، وكلما كثرت أفكارُه قويت معرفتُه وزاد استبصارُه ، ويعلم بذلك مقدار اللذائذ الروحانية ، وتنقلب الواسطة غرضًا حقيقيًا .

ومن تأمل في أحوال الشخص تحقق أن هذا السير في درجات الكمال من **دقائق** الحكمة ، ووضع الشيء على الوجه الذي ينبغي . فقد جعل الباري تعالى التلذذات المادية وغريزة التحفظ ، سبيلاً إلى تنبه القوى الروحانية . فيبتدئ بعلم ما يعلمه الناس ، وتكون معاملته معهم على حسب مع علمه منهم . كلما كثر الفكر استعد لقبول الفيض ، وكلما طال الطريق كانت أغراضه في غاية **التدقيق**، حتى يبلغ درجة كماله وذِروة إجلاله . وهذا أول مميز بينه وبين الحيوان . إن قلت : قد نشاهد في الحيوانات المختلفة الجنس ، القليل منها لا يرتكب الطرق والوسائط المستصعبة في استحصال ما يقوم به معاشه ، والأغلب منها لايكون له ذلك إلا بعد معاناة الصيد وملاحظة الاحتراسات لتحرى مايأكله . فعلى ماذكرت كان الحيوان الصائد مثلا بكثرة توارد هذه الإلهامات عليه ، يبلغ من درجة الفكر مايبلغه الإنسان . فنقول : **نعم يحصل لها ارتكاب تلك المشاق ، لكن مع ذلك لاتعاني مايعانيه الإنسان في التوسل لهذا الغرض ، إذ قبل الوصول لغرضه يجتدى طرقًا طويلة ويعتسف أعمالاً شاقة ، حتى أن العامل والزراع لو لم يقصد من عمله إلا خصوص المأكل والمشرب والملبس ، لم يتمكن منه إلا بكثيرمن الطرق** . فإذا حصل عنده كثير من طرق الحفظ بتشكيل الجمعية البشرية ، ووصل إلى كثير من وسائط التمتع ، واتسعت دائرة تصوره ، وعلم بمبادئ أفكاره ، يرى في نفسه غاية لأعماله ، ويشاهد أنه وإن لم ينقصه شيء من لوازم المطعم والملبس ، فقد بقى عليه أمر ينبغي أن يدركه ، وهو أدق مما هو فيه ، وأن اعماله الظاهرة التي يتوصل بها إلى ضرورات المعاش انعكاسات أشعة قوى باطنية ، وأنها مشتملة على ماهو أعلى وأرقى من ذلك .

ومن هذا الالتفات يشترك مع أبناء نوعه البشري ، فيسعى في إصلاح هذا التعيش ، ويعلم أن القدرة العلية قد وهبته هذه القوى ليرى ما يرى من الحظوظ والتلذذات . لكن ليس ذلك مبلغ المصلحة ، بل لتكون وسيلة إلى تهذيب نفسه ، والتخلق بالجميل ، والتخلي عن القبيح . فحينئذ يستعد لنزول الفيض من مبدأ الفيض ، فتنطبع نفسه على الرأفه الذاتية والإحسان وعلو الهمة ولطف السير. فعند ذلك ينظر إلى العالم بنظر غير الأول . فإنه إنما كان ينظر إليهم بالمحبة على حسب ما كان يصل إليه منهم من اللذائذ ، وبالبغض على حسب ما كان يصل إليه من منافراته . أما في هذا النظر ، فقد استوى عنده المحسن والمسيء إذ كانت الرأفة

والإحسان خلقة ، فلا يتخلى عنه في حال من الأحوال ، وهذا غاية منتهى السير ، إذ صارت محاسنه ذاتية ، وذاته روحية .

في سير الروح مع البدن
بالنظر إلى أحوال النوع البشري

من تأمل حال النوع الإنساني على تعاقب المَلَوَان ، من مبدئه إلى هذا الآن ، يتضح له حقيقةالأمر بأوضح بيان . في المبدأ لما كانت الحاجة إلى المطعم والملبس أخطر ، دعت الإنسان لأن يصير قناصًا أو راعيًا أو زارعًا ، ثم إن الشهوة النسلية أوجبت أن يكون للشخص عائلة ، ولدواعي الضعف وعدم المقاومة للمدافعة كان تأسيس الجمعية . ومن هذا الحين ظهرت أصول اللوازم البشرية ، ومن تزايد الأفراد وكثرتها ضاقت عليهم الأرض ولم تقم بأمور تعيشهم ، فتفرق الأفراد من ألم الجوع في أقطار بعيدة مختلفة ، فصرفوا قواهم في استحصال وسائط النفع بمحصولاتها ، ليتخلصوا مما هم فيه من العناء ، وما استنبطوه وأدركوه ، وإن كان قليلاً ، انتقل منهم بالرواية لذراريهم جيلاً بعد جيل ، فاتسعت دائرة تلك المعلومات البسيطة ، واهتدى الإنسان إلى طرق الأعمال والحيل ، وانتهى أمره إلى أن جعل القوى الطبيعية طوع يده فيتصرف بها في نفس الطبيعة وحصلت عنده مبادئ الفنون والصنعة ، ولم يكن غرضه من ذلك إلا كفاية الضروريات الحيوانيةإذ ذاك . كل ذلك من نظره إلى ما بين يديه ، فمن نظره فعل النار في شوى ما اصطاده من الأنهار والبحار ، ووصل إلى مزج الاجسام ، وبعد زمن انتقل إلى معرفة أعضاء الحيوانات بتشريحها بآلات ابتدعها ، بعد نظره في السكين المتخذ للقتل في زمن جهله ، ومن استعمال البيكار في المقادير الأرضية ، توصل إلى قياس أبعاد الكواكب وأجرامها . في ذلك كان الجسم هو الذي قهر القوة العاقلة وألجأها إلى الانتباه إلى الحادثات المحيطة به ، والتأمل فيها بإظهاره له لوازم هذه الدار ، وتبين لذتها وأهميتها . ولأن السير في الأرض لم يساعدهم على تتميم تلك الملاذ ، اخترعوا مركبًا يسيرون عليه في البحر لأجل تتميم أغراضهم وقضاء أوطارهم ، فساروا عليها في الأبحر والخلجان مهتدين بالنجوم ، حتى وصلوا إلى أقطار وبقاع اتخذوها مساكن وأوطانا . ومن تأملهم في أحوالها وشئونها الجديدة حصل لهم ضروريات جديدة تولد عنها أفكار جديدة . وبسبب قيام

الشهوات الحيوانية فيهم تحزبت الأحزاب . واستخرج من المعدن أسلحة القتل ، فأظهرت من الناس الشجعان والأقوياء ، ومن ثم ظهرت الظلمة ورجال العدوان . ومن حدوث المدن والحصون نشأت الممالك والدول ، وظهرت القوانين والواجبات والحقوق والفنون ، وبهذا السبب بعينه شرّع الله الشرائع وديّن الأديان .

ولما حل الزهو والزينة محل الضرورة وأخذت الأحوال في اتساع المجال ، فتح الإنسان جوف الأرض واستخرج ما في قاع البحر ، وتوصل بصنعة التجارة إلى نقل محصولات البقاع من الشرق إلى الغرب ، وبالعكس ، فنقل النباتات العطرية وغيرها من الأقطار الحارة إلى الباردة . وبطرق مخترعة جمع محصولات الأقطار المختلفة في بقعة واحدة ، ووصل إلى استكشاف ما أودعه الخالق في أفراد الخلقة ، فامستنبط علم الألحان والأنغام واستعملها ، فأنعش بسماعها القلوب المتوحشة ، ومن حسن النظام ، لطفت الأخلاق ورقت الأذواق ، ونشأ عن التفنن العلمُ والفضيلةُ ، ووصل الإنسان لإزالة الصخور المعطلة له عن السير ، وحوّل البرك مزارع . وبواسطة حفر القنوات واستنباع العيون توصل إلى انفصال الولايات أو ضمها ، وبتحيلاته جمع المنابع والعيون الصغيرة ، فصارت نهرًا جاريًا ، حوّله إلى الصحاري القفرة فأخصبت بعد أن كانت عقيمًا لا تنبت ، وجمع فيها من نباتات الأقطار المختلفة . وكأن العناصر طوع يده ، فالرياح والحرارة والبرودة والرطوبة وباقي العوارض ، لاتصده عن مقصده . إذ بتدبيره فاق فعله فعلها ، فاستعملها في منافعه بعد أن كانت متسلطة على ضَرَره . ومن إزالته الغابات المظلمة ، نقصت رطوبة الجو وبرودة الشتاء ، وتمكن من نظر السماء بعد حَجْب نظره عنها وتمتع بصفائها . وبإزالته مياه الغدران الراكدة ، تخلص من سموم ريحها وضررها ، وصفا عقله بصفاء القطر . وفي المملكة اشتغل الإنسان باللازم لضرورات المعيشة والتمتع . ومن الاجتهاد في الأعمال تحصلت المملكة في الداخل والخارج على الأمن والراحة ، فاشتغل أصحاب الفكر ورجال الفنون مع الطمأنينة ، في توسيع دائرة أفكارهم واستعمال آلات فنونهم ، فأخذت الفنون في طريق الارتقاء وازدياد العلوم حتى بلغت أوج الكمال ، وذهبت الوساوس والأوهام عن عقول الرجال ، واستبدت الأكاذيب الخرافية بالاطلاع على الواقعيات الحقيقية . فلو اطلع الإنسان على ما كان في بدايته ، لأخذه العجب من سفهه في ذلك الزمان ، وحمقه وجهالته . ولما كان مآل الزينة

والزهو، الانقلاب إلى التهور والفجور، والتحلل والاسترخاء، كان ذلك موجباً لتولد أمراض وعاهات بانفعالات الجسد عن جاذبات الجو فتضر بالإنسان ونوعه، اجتهدوا وأكثروا البحث في أنواع الخلقة ، فتحصلوا على ما به تنقص آلامه أو تزول ، وبهذا السبب وصل إلى معرفة خواص قشور شجر الكينا ومنفعة الأفيون[٢] ، واهتدى لفوائد الزئبق ، فحثه ذلك على البحث مع الدقة في كل شيء ، فوجد علم الكيمياء ، وبها توصل لتحليل الأجسام ، ووقف على أسرار أبدت له الأشياء في صور جديدة ، واخترع النظارات المعظمة فعلم الأعمال الحقيقية للخالق في تدبير المخلوقات ، فدعاه ذلك إلى ازدياد الجولان فكشف أعظم الأسرار. يعني علَم نفسه ، وبهذا الطريق كان الشر هو الواسطة في وصوله لأعظم الطيبات . فقد نشأ من المرض والموت علم الإنسان نفسه ، فلولا الأمراض ماكانت الحكمة والحكماء ، كما أنه لولا المحاربات لماكانت رجال الضرب والطعن ، وكذلك نشأ من تطلبات الضروريات الحيوانية كمال الروح . وإن جميع الحظوظ ، وإن فاقت الحد ، تساعد الترقي الإنساني والمحاربات والزهو وغير ذلك . وإن كان بحسب الظاهر يخرج عن الطريق الذي ينبغي ، لكنها على أي حال توصل إلى الغرض اللازم في زمن أقل من الزمن الذي كان يصير الوصول إليه فيه لو بقي السير على منهج القانون الطبيعي .

ومن تأمل في النسبة بين القرون الماضية وعصرنا هذا ، رأى أن الضرورات في تلك الأزمان وإن كانت جزئية سهلة الحصول تبين[٣] كيف كان جهل أهل تلك القرون . والآن اتسعت دائرة العلم وانكشفت المعلومات ، فوجد الإنسان ، لكفاية ضرورياته المتعددة ، طرقًا ولو طويلة لكن تدل على شرفه لوفور قدرته واستكمال قوته .

●●●

ومن جميع ما مضى ، يعلم أنه ينبغي للإنسان أن يكون حيوانًا أولاً ، حتى يعلم أنه روح ، ويلزمه أن يدب على وجه الأرض ويتفكر في ما بين يديه قبل أن يحوم حول الأكوان العالية . فالجسد حينئذ أول منبه لقوة العمل في الإنسان ، وأن الإحساسات هي سلم الارتقاء إلى أوج الكمال .

الاحساسات الحيوانية تسير مع الاحساسات الروحانية

لايخفى أن إدراك الآدمي مُنتهٍ إلى حَدٍّ لا يتعداه ، فجميع ما يحدث منه كذلك . ولأجل اتساع دائرته وازدياد القوة الدافعة للإرادة نحو الكمال ، والمبعدة لها عن الشر ، لزم أن تكون المادة الروحانية سائرة مع المادة الحيوانية مع الموافقة التامة ، بحيث كل ما يحصل لأحدهما يحصل للآخر ، ويكونان متعاضدين ، وينشأ عن ذلك قانون أصلي يمكننا التعبير عنه بقولنا : وظائف المادة الروحانية تقابل وظائف المادة الجسمانية ، بمعنى أنه كل ما حصل في القوى الروحانية يحصل مثله في القوى الجسمانية ، فكأنهما في توازن تام . وأن انتظام أحوال قوى المادة الروحانية ، وهو من انتظام أحوال المادة الجسمانية ، فكل ما وقع في قوى النفس يصل إلى ما يقابله من قوى البدن . وخمول النفس يتبعه بطء في حركة الجسد ، وغفلتها عن العمل مبطل لجميع أعماله ، وحيث كان الكمال يصحب بالحسن ، والنقص يصحب بالقبح ، فقد يمكن التعبير عن هذا القانون بقضية كلية بأن يقال : كل لذة نفسية مصاحبة لِلَذة مادية ، وكل ألم نفسي مصاحب لألم مادي .

حظ النفس يساعد سلامة الجسد

بناء على ماتقدم : كل إحساس يتمكن في النفس ، يتمكن في الجسد كله من غير تفاوت ، بمعنى أن القلب والدم والعروق والأعصاب ، وسواء أكانت الشرايين شرايين الحياة التي في القلب أو الصغيرة المحركة لشعر الجلد ، تشترك في ذلك وتكون الحركة في مجموع الجثة . فإن كان الإحساس مما يرتاح منه ، حصل لجميع أجزاء البدن نشاط وزيادة القوة ، فيضرب القلب ضربات قوية منتظمة ، ويتحرك الدم في مجاريه من غير مانع بالخفة أو السرعة ، على حسب قوة إحساس النفس . فيكون للهضم والدفع وغيرهما سير منتظم طبيعي ، وتشتغل الشرايين والأعصاب مع الراحة والنشاط . وهذا هو السبب في كون أوقات راحة النفس هي أوقات راحة الجسد . وبقدر مايوجد من الوظائف الصغيرة الجزئية الكثيرة العدد في الجسد ، تكون

إحساسات كثيرة خفية . كل واحد منها دليل للنفس على كمال حالة البدن . ومن مجموع الإحساسات الجزئية الخفية ، يكون الإحساس الكلي الدال على اعتدال أحوال البدن . فبحصول لذة نفسية ينشأ عنها في البدن لذائذ عديدة على حسب تعدد الإحساسات، يرشدك إلى ذلك أحوال المرضى إذا أخذوا في مبادئ الشفاء، تسهل عليهم أسباب الصحة في جميع أبدانهم . والغريب الذي نهكته الغربة وآلامها ، متى رجع إلى وطنه ، اكتسب الصحة والعافية وعاد إلى شبابه . والمسجون الذي ذهبت صحته ونحل جسمه طول مكثه في السجن مع عفونته ، لو بشرته بالإخراج ترى السرور تهلل في وجهه وأحاطت به دواعي الصحة ، وردت إليه الحياة التي كانت عما قليل تفارقه . والوصول إلى البريورث القوة والصحة للملاحين الذين كابدوا المشقات ، حيث ضلوا في طريقهم ، وطال بهم زمان يهمون في لجج البحار لا يعلمون أين يتوجهون ، وانتحلهم من ذلك الألم والمرض . والنظر إلى وجه عزيز يبطئ سرعة طلوع الروح ، ويجدد القوة لحظة مّا للمريض الذي يكابد غمرات الموت . كل ذلك مشاهد ، بل قد يحصل من الفرح للمجموع العصبي قوة ونشاط لا يحصلان له من جميع الأدوية .

ومن جميع ما سبق ، يعلم أن النفس مكيفة بحيث يمكنها استخراج اللذة من كل حادثة، ودفع ثورة الألم بنظرها في كمال نظام هذا العالم، فهي حينئذ أكبر مساعد لوظائف البدن . وما به تصل لتمام هذا الغرض هو المعرفة المكسبة للفضل والكمال .

الألم المعنوى يتلف صحة الجسم

متى حصل للنفس تألم حصل للجسم تألم ، ولك أن تقول : مايحدث من التصورات عند اشتداد الغضب والغيظ ، عبارة عن اختلاج أعضاء الإدراك . وأن الاختلاجات المذكورة تسري بسرعة في المجموع العصبي ، فتجعل جميع القوى في التضاد وعدم الانتظام، فيبطل التوازن الذي عليه نظام الجثة. ومن ذلك تضطرب ضربا القلب، وتخرج عن حد الانتظام، ويحبس الدم في الرئتين، ولا يكون منه في الأطراف غير قليل ، فلا يكفي لتحريك النبض . وبتضاد جميع أعمال التركيب الجسماني يحصل الإسراع في عملية الإبراز والإفراز ، فلا تتوجه المائعات المفروزة إلى

جهاتها ، ويتوجه النافع إلى غير محله وغير النافع من شأنه الخروج إلى خارج الجسم مع الابرازات ، يرجع إلى القلب ويختل النظام . وعلى ذلك يكون أعظم أمراض الجسم وألمه تابعًا لأعظم ألم النفس . وعلم النفس بالحالة المنافرة للجسم يصل إليها من إحساسات جزئية فتفيض عليها حالة الألم العام — الذي بإضافته إلى الألم المعنوي الذي هو أصل المرض — يحده ويقويه .

تمثيـــل

آلام النفس الشديدة المزمنة ، تنتهك الجسم ، وتضرّ بدواعي الحياة ، خصوصًا إذا أخذت تلك الآلام بالقوة المفكرة فتنحصر فيها ، كما هو مشاهد فيمن يصاب بهذه الآلام ، يرى باهت اللون ، نحيل الجسم ، وليس ذلك إلا من الآلام الكامنة في الجسم . بخلاف السليم من تلك الآلام النفسية ، فهو ينام ليله وينموجسمه ويتهلل وجهه ، وما ذاك إلا لخلو البال والراحة وعدم الاشتغال . وتسلط الخوف وعدم الطمأنينة وظلمة السريرة ليس بأقل تأثيراً من أشد الحميات ، فإن المهموم يسر ظناً منه أنَ السرور يزيل همه ، ولا يكسبه ثمرة ، لأن ألمه لم يكن معنويًا صرفًا ، بل حاصل من إحساس مؤلم أصله من القلب يشبه الإحساس المشعر بالحمى بلا تفاوت . ومرتكب الذنوب والقبائح من غير مبالاة من الخالق والخلق ، قد يفزع من رؤيا رآها في نومه فينتبه مصفر اللون مكروب النفس غريقًا في عرقه ، مما رأى من أهوال المضايق الإبنية التي كان ربما يسمعها مرارًا عديدة ولا يعبأ بها من جهله . فكأنها كانت نائمة ، فانتبهت ، أو مستترة ، فظهرت له في رؤياه. وذلك **لأن الصور الخيالية عند طرآنها على الخيال ليست ثابتة إلا بثبوت ظلي ليس إلا مجرد تصور مدلولات الألفاظ الاسمية ، فلا يزال العقل مترددًا . ولكن متى برزت له الصور في عالم خياله ، وتجلت له في رؤياه ، تنبهت منه جميع الإحساسات ، واضطربت جميع القوى الفكرية** . فحينئذ تفيض النفس على الأعضاء أنواع الآلام على حسب الاستعداد ، فارتبكت النفس حينئذ في الكرب والهم الشديد . والرعشة التي تعتري الإنسان عند مباشرة أمر ذميم ، أو بعده ، ليست إلا ما يحصل للمحموم ، أو شارب الدواء المكروه بعد شربه . والضرر الذي يعتري ضعفاء القلوب ومضطربي السرائر ، يكون دائمًا مستتبعًا لشدة

النبض وسرعته ، هو بنفسه حمى مستجمعة الصفات حاصلة من اشتراك الروح والبدن . فبناء على ذلك يكون الأحمق الغضوب يستجلب السم في جميع أحوال معيشته ، والحاقدون الذين يطلبون التشفي ممن أساء إليهم ، الصارفون أوقاتهم في هذه الأفكار ، لايزالون في ضنك أفكارهم وضيق أنظارهم ، وأرباب الحسد الذين، يتمنون زوال نعمة الغير ، لايزالون في آلام شاقة ، إذا بلغهم وصول الخير إلى إخوانهم . فهؤلاء أعداء لصحة أنفسهم . فإن لم يكن في الرذائل سوى ضياع الصحة والسعادة ، فهو كاف في وجوب كراهتها والتجنب عنها .

استثناء

قد شوهد أن تأثير الفرح الشديد قد أوجب الموت ، وتأثير الغم المفرط قد أوجب الشفاء من المرض ، والحال في الأمرين محقق بالتجربة . فهل أخل ذلك بالقانون المتقدم ؟ فنقول : إن الفرح إذا بلغ حد الذهول ، يوجب زهاق الروح ، لأن الطبيعة البشرية لا تتحمل التأثير الحاصل للمجموع العصبي في لحظة يسيرة دفعة واحدة ، إذ لم تكن حركة المخ حينئذ على القانون الطبيعي ، بل بشدة عنيفة غير مألوفة ، فتضر بالجسم ، لأنها أخرجته عن الغاية المجعولة للصحة . فإن صحة الجسم مرتبطة بطبع معين في الحركات المعتادة . فالفرح كالغم له قدر معلوم إن تعداه حصل التلف .

والحالة الثانية ، أعني الشفاء من المرض بواسطة شدة الغم ، فأمثاله كثيرة وقد شوهد أن درجة لطيفة من الغضب تنبث مع اللطف فيحصل بعد انصرافها تخلص المريض من آلام السدد المزمنة. مثلاً قد شوهد أن الخوف أو الرعب الذي حصل من الحريق خلّص من أمراض روماتزمية مزمنة قديمة، ومن الضملة بعد اليأس من الشفاء. والإسهال خلّص من السدد الحاصلة في الوريد الباب. والجرب خلص من السوداء أو المليخيليا، ومعلوم أن الجرب مرض، والإسهال لم يكن من شروط اعتدال الصحة.

خدر النفس يورث
ثقل حركة الجسم.

قد ذكر بعض الحكماء أن همة النفس في الأعمال اليومية ، ينشأ عنها زيادة إسراع في ضربات الشرايين في الليل ، فإن صح ءذلك فهل يبعد أنه يحصل بطء في حركاته ، إن حصل للنفس خدر أوكسل ، وتنعدم الضربات إن غفلت أو تخلت عن العمل . ولوأن دورة الدم لاتتعلق بالنفس تعلقاً كليًا ، ولكن يمكننا أن نحكم بأن القلب في جميع الأحوال يأخذ أغلب قواه من المخ . فان تأبت النفس عن مساعدته في تحركه ، نشأ عن ذلك ضياع كثير من قواه . فمن البلغم يحصل للنبض فتور وبطء في الحركة ، وتكثر ميوعة الدم ، وتتعطل حركة دورة الدم في البطن السفلى . وعند بعض البله والمخلولين يحصل عسر وبطء في التنفس ، وفقد شهوتي الأكل والشرب ، وتكاسل عن الإبرازات ، وثقل حركة النبض حتى تبلغ الندرة . وجميع قوى البدن تقع في الضعف والخمول ، ومايحصل من حذر النفس عقب الخوف والحيرة ، وما يشبه ذلك ، يلازمه في بعض الأحيان ضياع جميع همة الجسم . فهل النفس هي السبب في حصول هذه الحالة ، أو الجسم هو الذي سبب هذا الحذر في النفس ؟ والجواب عن هذا لا محل له هنا ، فإنه يخرجنا عن الموضوع

قانون ثان

كما انه يحصل من الآلام النفسية آلام جسمانية ، يحصل أيضًا من الآلام الجسمانية آلام نفسية ، وأن الشَّره والإفراط ينشأ عنه أمراض وآلام للجسم ، وتلك الآلام هي العقاب العاجل . وينبغي أن تكون تلك الآلام واردة على النفس مؤثرة في ماهيتها ، حتى ترتدع من شدة الألم ، فتجعل لشهواتها حدودًا تقف عندها، كما أن حالة الصحة البدنية المحسوسة تشعر الإنسان بصلاح معنوي حقيقي يحصل له من بقاء صحته على استقامة، فيجتهد في بقاء هذه الحالة للبدن. فمن هنا يعلم أصل آخر ينشأ من اجتماع المادتين، وهو أن كمال الأعضاء وبلوغها غاية من الصحة، يترتب عليه استكمال النفس في أعمالها لاستحكام آلتها حينئذ. وخلل الأعضاء يوجب خلل أعمال النفس، وأن اللذات الجسمانية ينشأ عنها لذات نفسية، كما أن الآلام الجسمانية ينشأ

عنها آلام نفسية فكأن النفس والبدن كآلتين ذواتي أوتار محكمتين متلاصقتين فمتى تحرك وتر إحداهما وحدث عنه صوت مّا، تحرك في الحال الوتر المقابل له في الأخرى، وحدث صوت يماثل الصوت الأول، وإن كانت قوته أقل. فكذلك الإنسان: وتر اللذائذ في الجسم متصل بوتر اللذائذ في النفس، فمتى تحرك أحدهما تحرك الآخر، ووتر الآلام في الجسم متصل بوتر الآلام في النفس، متى تحرك أحدهما تحرك الآخر. ومن هذه الارتباطات العجيبة والإتقانات الغريبة صارت الأمور المختلفة المتضادة في الإنسان كالأمر الواحد. فالإنسان ليس بسجم فقط ولا بروح فقط، بل هو امتزاج الأمرين جميعاً امتزاجاً تاماً.

جميع أحوال الجسم تصحبها أحوال مثلها في النفس

من ذلك أن الثقل والتنحي عن التفكروسوء الخلق ، تتبع امتلاء المعدة والتغالي في الشهوات ، وكذا ما يحصل عقب شرب النبيذ عند من يشرب منه بالخفة واللطف . فإنه يتبعها تخيلات وأوهام غير صحيحة بنشاط القوة ، وسهولة الفكر ، وقوة العزيمة ، وسرعة الإقدام . وكذا ما يحصل من حسن الخلق والاعتدال ، عند صفاء الجو وخلوص الهوى . فإن هذه الحالات ، وإن كانت بمشاركة التصورات ، ولكن لاينكر أن أصلها ناشئ من أن الوظائف الطبيعية ليست بمعطلة . فالمتمتع بهذا الأوصاف ، إذا سألته عن نفسه ، يجيب بأنه بخير لأنه يكون في هذه الأحوال كثير الرغبة في الأعمال العقلية ، والميل إلى المكارم والأعمال الزكية(٤) .

وكذلك يحصل في طباع الأمم ، فسكان الأقاليم الكدرة يكون في طبائعهم ما في طبيعة أرضهم ، فيكون الإنسان وحشيًا في الأقاليم المستوحشة الكثيرة الرعود والصواعق ، ويكون بشوشًا رقيقًا في الأقاليم اللطيفة ، ويكثر ميله إلى الإحسان والشفقة موافقة لصفاء الجو . **وفي الأقطار المعتدلة ، يكثر أصحاب العقول والنفوس العالية والأفكار الوقادة ، وفي غيرها كبلاد اللابونيا الواقعة في شمال أوربا المتسلط عليها العوارض الجوية كالبرد الشديد والثلوج المجمدة وظلمة الضباب ، قلّ أن يوجد فيها من تكمل فيه صفات الرجولية ، بل يندر ذلك ولا يوجد فيها من ذوى الفطنة**

أحد . وفي بعض البلدان كبلاد الألمان مثلاً حين ماكانت مغشاة بالغابات المتسعة المظلمة ، كان توحش ساكنيها بقدر توحّش الحيوان المتعيشين بصيده ، وبعد أن كشفت تلك الغابات بأيدي الإنسان ، تقدمت تلك البلدان ، وانكشف عنها ظلمة الجهالة والتوحش . وبالجملة فليس طبع ساكني القطر مكتسبًا من طبع القطر فقط ، بل لابد مع ذلك من صفاء الجو وانحدار الأضواء ، وبقدر ما يحصل في الجسم من الاختلال ، يحصل مثل ذلك في جميع قوى الكمالات الروحانية ، فتحدث طريقًا للشهوات الرديئة . ومن غلبته شهواته حتى جردته ، لا يعسر عليه اقتحام المهالك وسواد الحوالك في السير في تلك المسالك ، ويبذل جهده ويشد عضده لأجل أدنى خسيسة يريد أن يجلبها لنفسه . بخلاف من يستبقي صحة جسمه ، فإنك تراه بصيرًا في أمره ، حكيمًا في سيره .

فقد بان أنه على حسب صلاح الجسم ، يكون صلاح الروح ، وعلى حسب الفساد ، يكون الفساد . فلا تسكن الروح الخبيثة إلا في الجثة الخبيثة ، ولا الطيبة إلا في الطيبة . فالشريرون الذين يسعون في إفساد الشبان لمعرفتهم أحوال الطبيعة البشرية ، يبدأون أولاً بما يوجب إفساد أجسامهم للحصول على فساد أحوال أرواحهم ، لينضموا إليهم ويكونوا من حزبهم . ومن المشاهد عمومًا أن الأرواح المسيئة تسكن في الأجساد المتمرضة ، ويظهر ميلها لذلك في أوقات اشتداد المرض ، خصوصًا في الأمراض الشاقة والخبيثة الحاصلة من تركيب البطن السفلى ، مثل الحميات الخبيثة والبثرات والجمرات وغير ذلك . فإنها تكون مصاحبة لسوء الخلق والطبع ، ويكون سريان الأمراض في انعطافات التركيب الجسماني خفية ، فتحلل قوى الأعصاب البدنية ، فلا تشعر الروح بذلك إلا عند اقتراب خراب الجسد بإشارات دقيقة كالارتعاش . وفي هذه الأحوال تظهر الشراسة ، والعدول عن المألوف ، وكراهة المحبوب ، بغير سبب ظاهر ، ويصير الحليم سفيهًا ، وكثير الضحك والمباسطة كظوما ، ومحب الأعمال والاختلاط بالناس محبًا للعزلة . وفي خلال هذه الأحوال ، يكون المرض كامنًا تحت سترها ، يستعد بجميع قواه ليسطو على الجسم سطوة الجبار فيهدمه ، فيتحقق للإنسان صحة تمام ارتباط الروح بالجسد ، لأن الشعور بخلل الأعضاء الحاصل من ألوف من التأثيرات الصغيرة في المجموع الجسمي

يحصل منه خلل هائل لمجموع قوى النفس ، ويتمكن الرعب والخوف الشديد من قلوب أهل القسوة الذين لم تمس الرحمة قلوبهم من ثورة الآلام البدنية . وعند خروج الروح واليأس من الحياة يكثرون الاضطراب والعويل ، وتميل الروح إلى الانطماس والخفية في بحر الظلمة الحالكة ، وتنفر مما يسلي أو يكون فيه اطمئنان أو راحة ، ويشتد الخوف حتى لايرى غيره ، ومن اشتداد ألم النفس الحاصل من خلل الجسم تتسع دائرة الخلل المذكور فيعم البدن .

ويخرج عما سبق

وقد شوهد كثير من المرضى يصبرون على آلام الجثة بغير ضجر ولا ملل ، وغيرهم يقولون : أين طعنات حراب الموت وهم متقلبون في شدائده يعانون سكراته . فهل يقال : إن العلم والحكمة لم يكسبا صاحبهما ما به يستعين على تحمل اشتداد الآلام البدنية ، أو أن الدين لم يقدر أن يَقِي أتباعَه وأهله ويصونهم عن سطوات المادة . أو بعبارة أخرى : هل تجلد النفس وصبرها على مايؤلمها عند وقوع الخلل في حركات الحياة ، حاصل من ارتباطها بحالتها السابقة ؟ نعم ، الحكمة المتقوية بالدين والعقل الثابت يعينان على الصبر والتجلد ويهونان على المريض تأثيرات آلام المادة ، ويجعلان النفس كأنها انفصلت عنها ، واشتغال الفكر بأن الله تعالى موجود ، فعّال في الموت وفي الوجود ، وانتظام أحوال الحياة السابقة استشعار الأمل في الآتي بالسعادة الأبدية ، يفيض على تصوراته الأضواء. وأصحاب الزيغ تفيض الآلام البدنية على أرواحهم ، فتغمسها في غياهب الظلمات ، وأصحاب العقيدة السليمة ، واليقين الصادق ، إذا تحكم المرض فيهم ، يجدون من سلامة العقيدة وصدق اليقين ما به يتحول الألم لذة ، فيغشاهم الفرح ، ويدومون فيه إلى خروج الروح ومفارقة الدنيا. والصحو الذي يظهر قبل الموت في الأمراض الشديدة المميتة ، تارة يكون سببه أمراً مادياً يجب على الطبيب معرفته. وكثيراً ما تكون هذه الحالة مصاحبة لعلامات كاذبة ، موهمة للسلامة ، لايُرى ما يدل عليها ، فلا ينبغي الاطمئنان إليها إذ هي أمارة سوء. وأن الأعصاب فقدت الإحساس مما حصل لها في هيجان المرض. ومعلوم أن الأجزاء الدينية الملتهبة ، متى وقعت في الغنغرة ، تنقطع آلامها ، فيخطئ من يحكم بانقطاع دورة الالتهاب. فإن التهيج يفارق الأعصاب الميتة ، ويحصل في البدن خدر بتوهم

حصول شفاء عاجل، وتنغمس النفس في لذة بانفصالها عن الآلام الشديدة التي كابدتها مدة المرض. وهذا الانفصال وانقطاع الآلام ليس مترتباً على رجوع انتظام أعضائها، بل من عدم إحساسها بالخلل الحاصل لها، ومتى حصل انفصال المادتين بطل الائتلاف بينهما.

بعض توضيحات زيادة على ماسبق

ولو أردنا توسيع هذه المادة وتكلمنا على الجنون والذهول والنقطة والصرع ، وما أشبهها من الأمراض التي يكون فيها العقل تحت حكم البطن السفلي ، وشرحنا ما يحصل من أمراض الرحم والداءات السوداوية المعبر عنها بالابيوكندري ، وما ينشأ من الأمزجة المختلفة، أو نقلنا ما لاحظه الحكماء وكشفوه بالتجربة في معالجة تلك الأمراض وغيرها ، لملأنا بذلك أسفارًا . وجميع ذلك يدل على ماتقدم ذكره . ولكن فيا ذكرناه كفاية على دلالة امتزاج المادتين امتزاجًا تامًا ، وأن هذا الامتزاج المذكور هو حقيقة الوجود الإنساني .

الأحوال الجسمانية مبينة لحركة النفس .

وما يسمونه بعلم الفِراسة متأسس على قاعدة امتزاج المادتين الماضي ذكرهما، بسبب مقارنة الأعصاب يحصل اتصال الانفعالات وتظهر الحركات الخفية الدقيقة للنفس على سطح الجسم ، ويظهر من خلف أستار النفاق كامنات الشهوة . فكل حالة من أحوال النفس لها مظهر في البدن ، فهو الإشارة الدالة عليها ، ولسان حالها المبين لأحوالها . فكلما كانت مدارك النفس زكية طاهرة ، كان البدن متهللاً ومشرقًا ، وكلما كانت سيئة خبيثة كان البدن كثيفًا قريبًا من أجسام البهائم . وبقدر ما بعدت المدارك عن الكمال الرباني ، قربت الصورة الظاهرة من شبه الحيوان ، المشاركة له في صفته الغالبة عليه .

فإنا نرى مَنْ ظاهرهُ الشفقة والرحمة ينجذب إليه الفقير المحتاج ، ومَنْ ظاهرهُ التعاظم والغضب تنفر منه جميع الخلق . وهذه الإشارات من أهم الدلالات لنا على

الأحوال السابقة ، ثم إن المناسبة بين الأخلاق النفسية والحركات البدنية من الأهم معرفتها . فالشجاعة والبسالة تملأ العروق والأعصاب بالحياة والقوة ، فتقدح العينان بالشرر ، ويتسع الصدر ويتمدد ، وجميع أجزاء البدن تصير آخذة في التهيؤ والاستعداد للمقاومة ، ويكون الإنسان كالأسد . **والخوف والرعب يطفئان نور العين ، ويوهنان البدن ، ويحصل للأعصاب ارتخاء مع ضعف وثقل ، فكأن النخاع تجمد في العظام . والأفكار الجليلة العالية توجبنا(٥) أن نقف على أطراف الأصابع ، ونرفع الرأس ، ونطلق اللسان ، ونحدق النظر في الآفاق والاطراف ، والفكر في اللانهايات ، وامتداد النظر إلى متسع الفضاء والبحار ، وما شابه ذلك ، يبعثنا على مد السواعد طالبين الانتشار في متسع الكون . فنريد أن نصعد نحو السماء مرتفعين كالجبال ، وننطلق مرعدين كالعواصف والرعود وأمواج البحار ، والنظر من الشواهق المرتفعة إلى أسفلها يورث الدوران والميل إلى الوقوع فيها .** والحقد يظهر في البدن قوي التنافر ، بخلاف ما يحصل من المحبة والمودة ، كما تراه عند مصافحة المتحابين وتعانقهم . فإنك ترى أن الأبدان تميل إلى التداخل والامتزاج كالأرواح . والعزة توجب انبساط النفس وسعتها واعتدال الجسم واستقامته ، بخلاف الجبن فإنه يخفض الرأس ويورث الأعضاء الاسترخاء ، والخوف الدنيء يظهر في الجسم التذلل والحقارة . وتصور الألم يوجب انكماش الوجه ، وتصور اللذة والفرح ينوّر الجسم . وكثيرًا ما قطع الغيظ حبال المودة ، وأوصلت الضرورة إلى ما كان يظن استحالته .

إذا تقرر هذا ، فسؤالنا بأي كيفية تترجم الحركات الجسمية المحدودة عن الانفعالات النفسية ، وأن العضو الفلاني أو الفلاني يتغير من هذه الانفعالات ، هو كسؤالنا عن كيفية حصول التشنج في الفك الأسفل ، إذا حصل جرح في أغشية الأربطة .

فإن حركة النفس المنبهة لحركة في الجسم ، إذا كانت متجددة بحيث تصير عادة لها ، يتبعها في ذلك حركة الجسم ، فإذا استمرت وثبتت صارت طبعًا للنفس ، وصار أثرها في الجسم متمكنًا منه حتى كأنه من مركباته . وهذا هو السر في كون البدن البشري ينتهي به الأمر إلى أنه لا يمكنه أن يتخلى عن اعتياده ، فيكون تحويل الجسم عن اعتياده أصعب من تحويل النفس عن أخلاقها . فكأن الحاصل أن النفس نظمت للبدن صورته ، وأن مدة أول العمر أحكمت تقاطيع الوجه لباقي مدة الحياة ، وصيرت ذلك أساسًا لطبع الإنسان . وتجرد النفس عن السحنة ناشئ عن الضعف

والخمول وعدم تأثير الشهوات ، أو عن بله أصلي . فتقاطيع الوجه لا تتغير وتبقى كما خلقت في الطفل ، ولو يمت بسبب التعري ، وتكون الملاسة في الوجه بسبب قلة فعل الشهوات عليه ، وتحفظ الحواجب انحناءها لأنه لم يحصل لها ما يخرجها عن تقوسها ، ولا تتغير استدارة أعضاء الجسم بسبب اطمئنان الشحم في الأخلية ، ويحفظ الوجه صورته وربما بلغ الجمال ، لكن يتأسف على النفس .

ويمكن وصف أحوال الأعضاء ومعرفة صورها وأشكالها ومقاديرها مثلاً ، كالأنف والعين والفم والأذن وغيرها ، وإن كان هذا عملا طويلا ، لكن ذلك لا يجدي شيئًا ، ولو ألف فيه أضعاف ما ألف ، لأن أحوال النفس في كل فرد من أفراد الخليقة كثيرة متنوعة لا يمكن حصرها تحت قانون معين ، ولربما صار من يتعرض لشرح أحوال طائفة الأشرار من الناس معدودًا منهم .

قد يكون وهن الطبيعة الحيوانية منبعًا للكماليات

قد علمت مما تقدم أن البدن آلة للنفس وموصل لها أغراضها ، فلعلك تقول : إن البدن أيضًا سبب في مضارها وانحطاطها عن درجة كمالها . وذلك لأن أفعال النفس مرتبطة بأعضائها ، وتابعة لها في قوة العقل وضعفه . فمتى حصل لها تراخ أو تعطيل في الحركة ، حصل مثله في النفس أيضًا كالنوم مثلاً ، فإن من المعلوم أنه يضيع من العمر ثلثه بالأقل وغير ذلك . فإن الأفكار والاعمال العقلية مرتبطة أيضًا بالأحكام البدنية ، فيمل الجسم بملل البدن ويقف لوقوفه ، وربما كان ذلك في اللحظة التي قد كاد العقل أن يعثر على مطلوبه فيها ، واستقام في الطريق الموصلة إليه وقرب من التمكن من مطلوبه ، فيمتنع الجسم عن إعانته ويتكاسل عن العمل . فبعد أن كانت أوتار الأفكار مشدودة وسهامها محدودة ، تتلاشى بأجمعها عند نكوص البدن ، ولا شيء أضر من المانع عند أشد الاحتياج . فهل يقال إن الانسان كان يبلغ من التقدم والثمرات مبلغًا وافرا ، لو استمرت فكرته في قوة عملها على حالة واحدة ، ويتمكن من امتحان جميع تصوراته مع غاية الدقة ، ويصل إلى غامض ما اشتملت عليه الحوادث ، ولكن ليس الأمر كذلك كما سيتبين فيما سيأتي :

وما سيأتي يوصلنا إلى الحقيقة :

اولاً : لزوم الإحساس باللذة للإنسان لأجل أن تبعثه وتحثه على أن يبلغ كمالات ذاته ، ثم وكيف يكون للإنسان كمال إذا لم يتمتع باللذات ؟

ثانيًا : طبيعة ذات المخلوق المحدودة لابد لها من الإحساس بما ينفر ، والفلاسفة تراه من الكمال .

ثالثاً : طبيعة ذات المخلوق المركبة تستصحب معها وجود الألم ، لأنه مستندها في أكثر أحوالها. وحينئذ فالألم واللذة أمران ضروريان لابد منهما بناء على ما سبق. وغير ما تقدم نذكر أمرين صحيحين ، وإن بعد صدقهما فيما يظهر . الأول ، من خاصة كل ألم ولذة أن يزيد إلى غير النهاية . الثاني ، كل ألم ولذة في الذات المركبة يبعث على تلفها .

توضيحات

وبيان توضيح القانونين الأخيرين ، أن قانون اشتراك الإحساسات الضروري من مقتضاه أن كل إحساس أو فكر تنبه ينضم في الحال إلى آخر من نوعه فيقوى بالانضمام ، وكلما قوي الإحساس باقترانه بغيره نبه إحساسات من نوعه ، وكذلك الأفكار ، وهكذا تزيد حتى تكون هى المتسلطة وتكسو الروح . فعلى هذا كل إحساس يزيد بنفسه ، وكذا كل إدراك ، وكل حالة حالية للإدراك تنبىء عن حالة مستقبلة تشبهها ، ولكن أعظم منها ، وهذا ظاهر . وقد علمنا أن كل إحساس وحركة من حركات النفس ، قليلاً أو كثيرًا ، مستلزم لحركة عصبية تناسب في القوة والسعة لتلك الحركة . أو بعبارة أخرى : كل إحساس من إحساسات النفس مرتبط بمقدار من الحركات العصبية فعلها مناسب وموازن لفعله ، فإذن يتعين أن حركات المجموع العصبي تزيد بقدر زيادة حركات النفس ، وهذا ظاهر أيضًا .

ونعلم من علم الباثالوجيا (**علم طبائع الأمراض الباطنية**) أن أي عصب من الأعصاب لا يتأثر وحده ، فينبني على ذلك أن القوة متى غلبت في جهة نقصت في

جهة أخرى. فتبين مما تقدم أن كل حركة عصبية تقوى بنفسها . وحيث سبق أن حركات المجموع العصبي تؤثر في النفس وتقوى الإدراكات النفسية ، ومتى قويت الإدراكات أو الحركات النفسانية ، قويت بحسب تلك الحركات العصبية واشتدت ، فينتج ذلك أن كلاً منهما يقوى الأخر . فالإدراكات والحركات النفسية في ازدياد على الدوام ، وحركات الأعصاب كذلك على الدوام . وحيث أن الحركات البدنية التي ينشأ عنها فساد الجسم ، والحركات التي ينشأعنها صحته متضادة ، وأن الصحة لابد فيها من قانون منتظم لتلك الحركات ، فإذا بلغت الحركات الشدة ، وخرجت عن الحد نشأ عن ذلك المرض ، ولأن المرض لا يمكن أن يمتد إلى غير النهاية . فلابد أن ينتهي الأمر في تلك الحركات إلى فناء الجسم ، فقد ثبت أن منتهى الألم هو تلف الذات وفناؤها .

إن قلت : هل يقال بناء على ما يفهم مما مضى : إن حركات الأعصاب في حالة إحساس اللذة تكون منتظمة ومساعدة لبقاء البدن ، وإن الحالة التي يحصل للنفس فيها كمال اللذة هي الحالة التي يبلغ الجسم فيها غاية الصحة ، فإذن يكون كل إحساس من إحساسات اللذة يوجب دوام صحة الجسم إلى غير النهاية ؟..

قلت : لا يصح القول بهذا لأن الحركات العصبية داخلة تحت قانون معين ، كما سمعت . فإن كانت بتلك الدرجة نشأ عنها الصحة الحقيقية للجسم ، فإن تعدت الحركات هذا القانون المعين، فهي وإن كانت لذته حينئذ أتم ولكن قد تجاوزت حد الصحة ، فإن الصحة ليست إلا الحالة المتوسطة التي تنشأ عنها هذه الأفعال الطبيعية المتسببة في نفسها لأفعال آتية تماثلها . يعني ليست الصحة إلا بالحركات التي توجب الحفظ ، وبقاء الأفعال القابلة المذكورة . فالبقاء موقوف على الصحة . والصحة لاتكون إلا من الحركة المتوسطة . والمنهمك في شهواته المائل إلى طرف الأفراط يكون قد بلغ غاية اللذة ، ولكن في الوقت فقط . وبعد ذلك يحصل للجسم الفتور والخلل العام . فهذا دليل على أن الإفراط في اللذة ليس من الصحة في شيء . ومن هنا يمكنك أن تحكم بأن الإفراط في الأفعال الجسمانية ينشأ عنه المرض . والمرض ينشأ عنه التحليل في البدن فيفضي إلى الموت .

فقد ظهر أن كلا من اللذة والألم يوقعنا في الموت والهلاك ، إن لم يكن هناك ما يجدد غير المتحلل .

فوائد وهن البدن

ووهن الطبيعة الحيوانية هو السبب الموصل إلى المنافع والفوائد للبدن . وذلك أن القيود الملازمة للجسم ، وإن جعلها بعضهم دليلاً على قصوره عن بلوغ كماله ، هي المستوجبة تلطيف ما يحدث عن التركيب الجسماني من الأمور المضرة بالبدن والضعف والاسترخاء الحاصل للاعضاء ، ومنه يتأذى بعض أصحاب الأفكار ، هو المانع لثورة القوى البدنية من أن تتلفه في زمن يسير ، والمانع أيضًا لازدياد الإحساسات على مايلزم ، لئلا يترتب عليه تلف الجسم . وبحسب القوى يتعين لكل إحساس دوره في منشئه وبلوغ غايته وانحطاطه ، بل وزواله عند الارتخاء العام للبدن . وعلى الانحطاط المذكور يترتب عَوْد القوى الروحانية إلى نظامها ، وتملك الأعضاء البدنية راحتها ؛ ولذا كان أعلى الدرجات في بذل الهمة يستوجب الملل ، وفي الخوف يستلزم الضعف ، وفي الغيظ يستتبع الإغماء والغياب عن الحس .

والنوم يحصل منه أعظم من ذلك لأنه المخلص من الكروب والأوهام ، وغامر لمشاق الأعمال في مياه الصحة ، فكأنه يلد لكل يوم حياته ، وبه تأخذ القوى البدنية أحوال التوازن اللازم لقوام البنية ، وفيه تغيب جميع الأفكار والتصورات الاضطرابية المتعبة للبدن مسافة النهار ، فتكون كأنها انطمست في الفتور الذي اعترى القوى الحاسة . ويترتب على ذلك انتظام أعمال الروح ، ويكون الإنسان وقت قيامه من نومه كالمتصافح مع غده .

وإن نظرنا لانتظام أحوال الجمعية ، نجد أن هذا التراخي والفتور لايقوّم بقيمة ، لأن نتيجة هذا النظام تقضي بأن طوائف من الخلق تبقى في العناء والقهر مدة حياتهم ولا يتمتعون كغيرهم بالراحة . وأن طوائف أخرى تنقضى أعمارهم في مشغولية الفكر والتدبير لدوام راحة العموم، وأضف إلى ذلك المرضى والبهائم. فالنوم يغمض عين الألم ويخفف على الأمير والحاكم أثقال الحكم، ويبثّ في عروق بدن المريض قوى الحياة ، ويجلب إلى الروح المضطرب الراحة والاطمئنان ، ويخلص العامل من مشقة عمله وقهر سائقة ، وينفلت حيوان العمل من يد ظالمة وهو الإنسان . فالنوم قبر لجميع الأهوال والشدائد ، والمنظم والمنشئ للقوى الجديدة اللازمة لمقاومة وتحمّل

ومتى حلّ الوقت الموعود التي تصل النفس فيه إلى غايتها ، يكون في داخلنا أمر لانعلمه ، يمنع الجسم عن أن يكون في طوع النفس . وجميع التدابير التي صارت إلى هذا الوقت لجعل الجسم في أكمل أحواله لم يكن الغرض منها إلا وصوله إلى هذا الحد . ويظهر أن الحكمة العلية من حين النشأة الأولى جعلت قوى التحليل في أمر تدبير البدن غالبة على قوى الاستعواض . وينبت الموت من الحياة ، كما ينبت العود من الحبة . ويصير تحليل المادة المركبة إلى بسائطها ، وتنتشر في صور بكيفيات جديدة في عموم الخلقة لمقاصد أخر . وتستمر النفس وماكسبت في مساكن أخرى غير هذه . وتشاهد الكون في هيئات جديدة . **ويمكن أن يقال : إنها لم تبلغ غاية هذه ، وكان يمكن أن تستديم بها حتى تصل غاية كمالها . ولكن من يحكم بأنها فقدت نظر هذه بالكلية ، فإنا ندع كتاب كذا الآن ، لعدم فهمنا اياه ، وربما نفهمه فيما بعد ...**

حياة علي مبارك

وبعد ، **فعلي مبارك عالم جليل من علماء القرن التاسع عشر الميلادي . أحب العلم حتى تغلغل في نفسه ، وملك عليها جل مشاعرها ، ووهب إرادة قوية استهانت بالصعاب** ، وعزيمة جبارة اقتحمت الحواجز التي وقفت في طريقها . وكان ذا نفس هادئة وبصيرة نافذة ، ونظرة واقعية إلى أحوال المجتمع . **وضع مجد مصر نصب عينيه ، فبذل الجهد المتواصل** ، ودأب على العمل بهمة لا تعرف الملل ولا يدركها الكلل . وكان — رحمه الله — **قوى** البنية ، حاد الذهن ، طويل القامة ، عريض

المنكبين ، أسمر اللون ، تلوح على وجهه الملامح المصرية الصميمة ، كاد أن يكون الوزير الوحيد الأصيل في مصريته في الوقت الذي عاش فيه . وكان بعيد الآمال قويّ الإرادة ، شديد الثقة بنفسه ، راسخ الإيمان بالله ، قوي الملاحظة ، واسع الفكر ، خصيب الإنتاج ، شغوفًا بالتجديد ، شعاره الدقة وحسن النظام ، بصيرا بأقدار الرجال ، بارًّا بأهله ، شفيقا بالضعفاء والفقراء .

تولى الوزارة أكثر من مرة ، فكانت له إصلاحات نافذة في كل مجال تولاه ، وبخاصة في مجال التعليم ، فإن المؤرخ إذا أراد أن يؤرخ للتعليم في مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فلا يكاد يخرج عن حياة علي مبارك .

ولد في سنة ١٢٣٩ هـ (١٨٢٣ م) في قرية صغيرة تدعى «برنبال الجديدة» تابعة لمركز دكرنس في مديرية الدقهلية (محافظة الدقهلية الآن) وتلقى تعليمه في مصر وفي فرنسا . وتوفي في ٥ من جمادي الأولى سنة ١٣١١ هـ (١٤ من نوفمبر ١٨٩٣ م) .

وقد ألف علي مبارك كتبا كثيرة في العلوم ، والرياضيات ، والأدب ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والاجتماع . فبرز فيها جميعاً ، وترك وراءه آثاراً نافعة أفادت المشتغلين بهذه الفنون . كل هذا إلى جانب تشجيعه لترجمة الكتب التي رأى فيها فائدة لطلاب العلم والمثقفين .

رحم الله علي مبارك رحمة واسعة ، بقدر ما أسدى إلى العلم وطلابه من أياد بيضاء .